معاجم مصطلحات علم المخطوطات العربى وقيمتها الحضارية

د. خالد فهمى
كلية الآداب
جامعة المنوفية - مصر

مدخل

ما زال التقدم العلمى حتى – وهو يرتاد آفاقا جديدة يكشف عن أبعاد جديدة لحقيقة ثابتة راسخة هى الأثر الجبار الذى أحدثه الإسلام فى الحضارة الإنسانية وبخصائص وموائز مختلفة فى غاياتها عن غيرها من الحضارات التى عرفها البشر فى الأزمنة والأمكنة المختلفة.

ولقد كشف العصر الحديث عن علم جديد، وإن بدت بعض إشارات قديمة إلى بعض قضاياه ومسائله – وهو علم المخطوط العربى، يقول الدكتور عبد الستار الحلوجى: "إن التراث العربى المخطوط أطول عمرًا، وأضخم عددًا، وأشد تنوعًا، وأقوى انتشارًا، وأكثر أصالة من التراث المخطوط لأية أمة أخرى"(١)

وقد تأسس هذا الحكم على معايير زمانية ومكانية وحضارية "أضفت عليه قيمة لا نظير لها، فهو الذاكرة الحية لأمة امتد تاريخها على خمسة عشر قرنًا من الزمان، ووضعت أقدامها فى مشارق الأرض ومغاربها، وأمدت الحضارة الإنسانية بزاد ثرى فى مختلف فروع المعرفة، وتفرد تراثها بعلوم لم يسبقوا إليها، ولم يلحقوا فيها".

ويعرف علم المخطوط بأنه: "الدراسة المختصة بتناول جميع جوانب المخطوط باستثناء محتواها، كما يوصف بأنه ذلك العلم الذى يركز كليًا على الخصائص المادية للكتاب المخطوط باليد".

ويستنبط الدكتور الحلوجى(٢) فى غير ما مصدر من مؤلفاته أن علم المخطوط العربى يتناول بالدرس ستة محاور أساسية، هي:

١- تاريخ المخطوط.
٢- دراسة المخطوط كوعاء من أوعية المعلومات.
٣- تقييم المخطوط.
٤- الحفظ والصيانة.
٥- الفهرسة والضبط الببليوجرافي.
٦- التحقيق والنشر.

وبعيدًا عن الجدل الذى قد يثار حول هذا المفهوم – فإننا نرى أن جمع مصطلحية علم المخطوط العربى؛ أى مجموعة المصطلحات

المعبرة عن مفاهيم هذا العلم وتصوراته - أمر حديث جدا من جانب، وأمر مهم جدا لاعتبارات متعددة، وهو أمر يكشف عن العناية الفائقة التى أولتها الحضارة العربية الإسلامية للكتاب المخطوط للدرجة التى نستطيع أن نقرر معها أن قراءة المنجز الحضارى للأمة العربية الإسلامية فى مجال المخطوطات تقود إلى تقرير الحقيقة التى تقول إن علم المخطوطات كان التطبيق العملى لمثل قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم) [سورة العلق ١/٩٦-٤] وبإمكاننا أن نقرر أن تلاوة مثل قوله تعالى: (ن والقلم وما يسطرون) [سورة القلم ١/٦٨] حق تلاوتها قاد إلى هذا الذى كان من أمر هذا العلم؛ إذ كان لهذا القسم الإلهى أثر ظاهر فى عناية العرب بمظاهر هذا العلم.

٢- مصادر مصطلحية علم المخطوط عند العرب

لا شك أن علم المخطوط العربى بنى جهازه الاصطلاحى عن طريق ما نسميه بالمصطلحات الرحالة؛ أى بنقل عدد من ألفاظ العلوم المختلفة التى أسهمت فى بناء هيكل هذا العلم المعرفى، وهى على جهة التعيين ماثلة فى المحاور الستة التى اقترحها الدكتور عبد الستار الحلوجى فيما سبق هنا.

ومن ثم فإننا نستطيع أن نقرر أن بناء معجم لمصطلحات هذا العلم ينبغى أن تعتمد المصادر التالية:

أولا - ما حفظ لنا عبر التاريخ الطويل من مخطوطات، بأشكالها وخطوطها المختلفة.

ثانيًا - مصنفات الفهارس والبرامج المختلفة التى احتفظ بها لنا التاريخ العلمى العربي.

ثالثًا - مصنفات علم الرسم والكتابة وآلاتها.

رابعًا- مصنفات المحدثين المسلمين ولا سيما فى أبواب الكتابة عن الشيوخ إثباتًا وكشطًا وتضبيبًا وتصحيحًا وطمسًا، إلخ.

خامسًا - مصنفات صناعة الإنشاء، وديوان الكتابة وديوان الخراج لعنايتها فى بنائها العلمى بما يلزم الكاتب من أدوات كتابته، وطرق البرى وأنواع المداد، وصنوف الخطوط، إلخ.

من مثل مصنفات: القلقشندى، وابن فضل الله العمرى، والنويرى، وغيرهم.

سادسًا - المصنفات المعاصرة فى أثر الحضارة العربية وتاريخها من مثل ما كتبه: آدم متيز، وجوستاف لوبون، والعقاد، وغيرهم.

سابعًا- المؤلفات المعاصرة فى علم الكتاب العربى، من مثل ما ألفه: محمد محمد أمان، وأيمن فؤاد سيد، وجورج عطية، وعبد الله الحبشى، ومحمد ماهر حمودة، وغيرهم.

ثامنًا- المؤلفات المعاصرة فى علم المخطوط العربى من مثل ما كتبه: عبد الستار الحلوجى، وأحمد شوقى بنبين، وغيرهما.

تاسعًا - المؤلفات المعاصرة فى تحقيق النصوص العربية، من مثل ما كتبه:

برجشتراسر، وعبد السلام هارون، ورمضان عبد التواب، وغيرهم.

عاشرًا – المعاجم المعاصرة فى علوم التأليف والبحث العلمى، والتوثيق وعلم المكتبات.

حادى عشر – المصنفات المعاصرة التى تدرس قضايا الترميم والصيانة للمخطوطات القديمة، وعلم الخط.

ثانى عشر – مجموعة معاجم المصطلحات المتعددة العلوم عند العرب، كمفاتيح العلوم للخوارزمى، والتعريفات للجرجانى، وغيرهما.

فهذه المصادر الموزعة على اثنتى عشرة مجموعة هى فى تصورنا المادة اللازمة لصناعة معجمات لمصطلحية علم المخطوط عند العرب، وهى مجموعة قابلة للزيادة - ولا شك - عند التفصيل الذى لا يناسب المقام هنا.

ونحب أن نقرر أن عددًا من مجموعات هذه المصادر غائب عن المعاجم التى صنعت فى العصر الحديث للعناية بمصطلحات علم المخطوط.

٣- معاجم مصطلحات المخطوط العربى المعاصرة

كان لتطور علم المخطوط العربى فى العصر الحديث، وظهور تخصص مستقل يناقش مسائله، ويدرس قضاياه – أثره فى ظهور الحاجة إلى معجمية مختصة لمصطلحات، تعنى بجمعها، وترتيبها، وضبطها، وتحريرها، وتدقيق مفاهيمها وتصوراتها.

ومن الحق أن نقرر أن ظهور معاجم لمصطلحات هذا العلم سبق إليها العلماء فى الغرب، ثم تبعهم العلماء العرب على إقلال لا يناسب قيمة هذا العلم والتفوق العربى فيه.

وقد عرف التصنيف المعجمى المختص فى العصر الحديث ثلاثة معاجم اعتنت بجمع مصطلحات علم المخطوط العربى وشرحها وتعريفها، هى كما يلى:

أ- مصطلحات علم المخطوط، لدينيس موتزيريل Denis Muzerelle الذى أصدره فى باريس سنة ١٩٨٥م، وهو معجم فرنسى عنوانه:

(vocabulaire codicologique)

يقول عنه الدكتور أحمد شوقى بنبين ومصطفى طوبى أراد له صانعه " أن يكون موجزًا يقتصر على شرح الكلمة شرحا مختصرا على غرار شروح الألفاظ فى القواميس اللغوية، وهو أول معجم ظهر فى التراث الإنسانى فى هذا المجال ".

ب- تقاليد المخطوط العربي: معجم مصطلحات فنية مع ببليوجرافيا، للمستشرق البولونى آدم جاسيك Adam Gacek، طبعة بريل بلين وبوستون وكولن سنة ٢٠٠١م، وهو معجم عربى/ إنجليزى.

ج- معجم مصطلحات المخطوط العربى (قاموس كوديكولوجى) للدكتور أحمد شوقى بنبين ومصطفى طوبى، الخزانة الحسنية بالرباط، صدرت آخر طبعاته - وهى الثالثة - سنة ٢٠٠٥م

وهناك محاولة معجمية أخرى يبدو أنها صنعت على سبيل التجريب صنعها محمد شبوح بعنوان: (نحو معجم تاريخي لمصطلح ونصوص صناعة المخطوط العربي) نشرت ضمن أعمال مؤتمر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي الثالث بلندن ١٤١٨هـ=١٩٩٩م في صيانة وحفظ المخطوطات الإسلامية.

٤- وظائف معجمات مصطلحات علم المخطوط العربي

إن أحد المعايير المهمة الحاكمة في صناعة المعاجم ما يسمى بالوظيفة التي يسعى صانعوها إلى الوفاء بها، وقد سعت معجمات مصطلحات علم المخطوط العربي إلى تحقيق الوظائف التالية:

أولا – الوظيفة الحضارية

المقصود بها أن يكون المعجم هنا أداة كاشفة عن مدى ما قدمته الثقافة الإسلامية المتلبسة باللسان العربي من عطاء خاص متعلق بتراث الأمة العربية المخطوط، وأن امتداد تاريخهم في كتابة علومهم ومعارفهم – أصاب أنواع المادة المكتوب عليها، وأنواع الخطوط المستعملة، وأنواع الأحبار وألوانها، والرسوم والجداول التوضيحية، والتزيين والزخرفة وأنواع القلم وكيفية بريها، وصناعة التجليد، وحفظ المخطوط وصيانته، إلى غير ذلك من موضوعات كانت مشغلة لأمة معرفية أنتجت ابتكارات وعلوم سعدت بها الإنسانية.

وقد التفت إلى هذه الوظيفة أحمد التوفيق في تقديمه لمعجم أحمد شوقي بنبين ومصطفى طوبي (ص ٧): "يقف من يستعمل هذا المعجم... على هذه المادة كمرآة لحضارة صنعت وسمت كل ما صنعت"، وهو ما يؤكده آدم جاسيك في أول سطر عندما يقول: إن من خصائص الحضارة العربية الإسلامية الأساسية – ولا شك عنايتها بالكتب، وهو أمر يرقى إلى درجة اليقين عنده، ثم يقرر أن الوضع المركزي للكتاب في الثقافة العربية يعد من جذور الإسلام نفسه، وإليك نص كلامه (ص ١٣= XIII):

"one of the principal characteristics of Arab civilization undoubtedly the cult of books. this central position of the book in Arabic culture has its roots itself "

ثانيًا – الوظيفة الاصطلاحية / المعرفية

بجانب ما تقوم به معجمات مصطلحات علم المخطوط العربي من كشف عن الوجه الحضاري الرائع لهذه الأمة العربية الإسلامية – فإننا لا يمكن أن ننكر أن أية معجمات مختصة تتمثل وظيفتها الكبرى في ضبط مصطلحات العلم وتحريرها، وشرحها، وتعريفها، وعناية بمفاهيمها، وتقريب تصوراتها للإدراك.

وهذه الوظيفة الاصطلاحية هي الأساس ولا شك، وهو ما لمسه صانعو هذه المعجمات ونصوا عليه، يقول الدكتور مصطفى طوبي في مقدمته لمعجم مصطلحات المخطوطات العربي (ص ١٨): "أصبح وضع معجم في علم المخطوطات ضربة لازب في الوقت الراهن" وهذه

الوظيفة من الظهور المنطقية، بحيث لا تحتاج إلى التوقف كثير أمامها.

ثالثًا – طلب استقرار علم المخطوط العربى

هذه وظيفة تبدو مثيرة للغرابة إلى حد كبير، ذلك أن المعجمات المختصة عمومًا تعكس وجها من وجوه النضج والاستقرار للعلم الذى يجمع مصطلحات ويرتبها ويحررها ويعرفها.

لكن الأمر هنا يعتريه شىء من الاختلاف؛ إذ يشيع فى الأدبيات المعنية بدراسة علم المخطوط العربى والتعريف به جدل لم يحسم إلى الآن حول طبيعة هذا العلم، ومحاوره، وما ينضوى تحته وما لا ينضوى بصورة فيها تفاوت ملموس بين الدارسين؛ ولذلك سعت بعض المعجمات المصنفة فى العناية بمصطلحات هذا العلم إلى أن تصنع هذه المعجمات دورًا فى استقرار مفاهيم هذا العلم ونضجه وترسيخ المحاور التى تدخل فى نطاقه، وهو ما يعبر عنه تعبيرًا واضحًا الدكتور أحمد شوقى بنبين قائلا (ص ١٢): "والإقدام على إنجاز هذا المعجم يعتبر نوعًا من المخاطرة؛ لأن علم المخطوطات بمفهومه العلمى الحديث الذى يمكنه أن يمدنا بما نحتاج إليه من ألفاظ ومصطلحات هو علم جديد لم يتبلور بعد، بل ما زال فى مرحلة الطفولة".

ولست أشك فى أن هذه المعجمات ستحقق خطوة ملموسة فى استقرار مفاهيم هذا العلم الحديث.

رابعًا: الوظيفة التاريخية

يعرف المهتمون بالمخطوطات العربية بأنها خضعت لتطورات كثيرة، على امتداد تاريخ مزدهر من العناية بالكتاب، وهو ما يشير إلى تنامى ظهور مصطلحات مع مرحلة تطورية خضع لها المخطوط العربي؛ بمعنى أن عددا من مصطلحات التجليد مثلا لم تكن موجودة إلى أن بدأت مرحلة تجليد المخطوطات فواكبها ظهور عدد من مصطلحات ترصد مفاهيم هذه المرحلة.

وهو ما يعكس من جانب مهم مرونة اللسان العربى الذى استطاع باعتراف المعجميين المختصين أن يمد الجهاز الاصطلاحى لعلم المخطوط بما يحتاج إليه فى كل مرحلة من مراحل تطوره.

ومع هذه الوظائف المهمة جدًا فإن ثمة عددًا آخر من الوظائف الصغرى التى عنيت بها هذه المعجمات، من مثل:

أ- بيان معلومات الضبط والهجاء

وظهور هذه الوظيفة أمر منطقى لاعتبارات مختلفة منها أن عددًا من معاجم مصطلحات المخطوط ظهرت فى غير اللسان العربى – مما تمس الحاجة معه إلى بيان طريقة نطق المصطلحات، وهو ما التزمه آدم جاسيك فى صدر تعليقه على المصطلحات التى أوردها فى معجمه مستعملا طريقة الكتابة الصوتية؛ لضبط النطق، ومن أمثلة ذلك عنده: (دهن / Duhn) ص ٤٨ و(شاهد / Shahid) ص ٨٠ (النسخة الملفقة/ Al-Nuskhah al – mulaffaqah) ص ١٢٩، وهو ما حرص

عليه أيضًا الدكتور أحمد شوقى بنبين، والدكتور مصطفى طوبى.

ب- بيان معلومات البنية (المعلومات الصرفية)

وقد تعلق الأمر ببيان النوع الصرفى أو ذكر جموع بعض الكلمات للحاجة إلى ذلك، ومن أمثلة ذلك عند آدم جاسيك ص ١٥ باب: (ج) أبواب / pl.abwab bab:). وص ٦٧ (سطر: أسطر / سطور satr (pl.astur, (astar , suture

٥- منهجية الترتيب

غلب المنهج الألفبائى على أنظمة ترتيب المصطلحات فى معاجم مصطلحات علم المخطوط العربى، والعلة المذكورة – وهى صادقة – هى التيسير على المستعملين.

والحق أن ترتيب المصطلحات ألفبائيًا وفق شكلها النهائى فى الاستعمال من غير اعتبار الرد إلى الجذور أو الأصول أرقى فى باب التيسير على المستعملين، وهو ما فعله الدكتور أحمد شوقى بنبين والدكتور / مصطفى طوبى، ونبها عليه فى مقدمات معجمها.

أما آدم جاسيك وإن رتب المصطلحات ألفبائيا إلا أنه راعى أصول المصطلحات أو جذورها التى انحدرت منها: وهو ما قلل من التيسير من جانب ولم يراع طبيعة بعض المصطلحات المركبة والأعجمية، وهو ما انتقده فيه معجم مصطلحات علم المخطوط العربي.

ولم يذكر آدم جاسيك علة لهذا الترتيب الجذرى، واكتفى قائلا ص ١٤= XVI إنه رتب المعجم طبقا للألفبائية على جذور الكلمات.

"the glossary is thus arranged alphabetical according to root of the word which is given in Arabic script "

٦- استدراكات

لا شك أن ظهور هذه المعجمات دليل فى يد دراسى العربية على مرونتها وقدرتها على مواجهة التطورات المعرفية.

ولا شك أننا نقدر الجهد الرائع الذى اضطلع به أصحاب هذه المعجمات ولا سيما المعجم العربى فى المجال، وهو ما يدعونا إلى التنبيه على عدد غير قليل من المصطلحات، ومن المعلومات التى يرجى أن يستدركها الفاضلان: الدكتور أحمد شوقى بنبين، والدكتور مصطفى طوبى، وفيما يلى مجموعة من الملاحظات الاستدراكية:

١- خلو المعجم من السمة الموسوعية، بمعنى أنه خلا من إيراد أى من المعلومات الموسوعية المتعلقة بالأعلام أو المؤلفات شديدة الارتباط بمصطلحات علم المخطوط، من مثل: ابن درستويه، وابن البواب، والسمعانى، والقلقشندى، إلخ. ومن مثل: أدب الكاتب، كتاب الكتاب، وصبح الأعشى، إلخ.

٢- خلو المعجم من مصطلحات الضبط فى العربية من مثل:
الشدة، والضمة، والفتحة، والكسرة.

٣- خلو المعجم من مصطلحات كثيرة لها علاقة بمادة علم المخطوط العربى من مثل: (مرتبة على منهج المعجم):

- أما بعد (= فصل الخطاب): وهى العبارة التى ينتقل فيها الكاتب إلى موضوع كتابه بعد انتهاء صدر الكتاب.
- البرى (برى القلم): وهو إعداد القلم وتجهيزه للكتابة عن طريق ضبط سنه بسكين بطريقة معروفة.
- سجية الرسم (طبيعة الكاتب فى كتابته): وهى طريقة الكاتب المألوفة فى كتابته، وهى تفيد فى فحص الكتب المزورة، ويمكن أن تضاف وسيلة لبيان توثيق نسبة المخطوطات إلى أصحابها إن ذكر أنهم كتبوها بخطوطهم.
- فصل الخطاب (انظر: أما بعد)
- فقر منتخبة: نصوص مقتبسة من نص آخر.
- قطع الكلمة: هو توزيعها على سطرين وهو مما يستقبح فى عرف الكتاب.

المنظومة = نوع من التأليف يدون المعارف فى صورة نظمية يغلب أن تكون رجزًا.

- النسخة المجددة: وهى النسخة الناقصة التى يكتبها ناسخ معين، ثم يأتى فيكملها ناسخ غير الأول.

ومما اقترح زيادته كذلك:

- النسخة المورثة/ والنسخة اليتيمة.

ومما يصح زيادته على بعض تعريفاته ما يلي:

زيادة: ما يلى فى آخر مدخل التعليقة ص ٩٤:

"وهى آخر كلمة فى الصفحة توضع أسفل الصفحة وهى هى التى تبدأ بها الصفحة اليسرى من أعلى لغرض ترتيب أوراق المخطوط، وهى شكل قديم يقوم مقام الترقيم".

واقترح زيادة ما يلى فى آخر التعليق على المعنى التوقيع ص ١٠٦ "وهو: رد مركز دال على معنى كثير بلفظ قليل، يمثل إجابة على الكتاب".

واقترح زيادة ما يلى فى آخر التعليق على معنى الخاتم ص ١٣٩ "وأول من ختم الكتب النبى صلى الله عليه وسلم حين علم أن الملوك لا تقبل إلا إن كانت الكتب مختومة" [عن الرسالة العذراء ١٣٩]

ويضاف معنى آخر هو: خاتم الكتاب: ربط الكتاب منعًا من اطلاع حامله.

كما وقع بعض الملاحظات المتعلقة ببعض علامات الاضطراب المعجم من مثل:

- تعريف البيكار (ص ٦٤) بأنه أداة تستعمل فى رسم الأشكال الهندسية فى الكتاب، ويقال له البركار.

ويقول فى تعريف البر كار (ص ٥٨): " آلة ذات ساقين ترسم بها الدوائر"، وهما تعريفان مختلفان بعض الاختلاف.

وأصول الصناعة كانت تقتضى أن يعرفها عند أول مرة ترد، ثم يذكرها فى

صورتها الثانية من غير شرح، ويستعمل نظام الإحالة المعجمية فى الموضع الأول إلى الموضع الثانى، وفى الموضع الثانى لا يشرح ويحيل على الموضع الأول.

ويعلق على معنى التحبيس بما يشعر أنه خاص بالغرب الإسلامى فيقول ٧٢: هو المصطلح الذى استعمل فى الغرب الإسلامى للتعبير عن الوقف. وهذا غير دقيق، إذ الحبس (بضمتين) مستعمل فى معنى الوقف عند المشاركة، ففى الأم للشافعى باب للحبس أى للأوقاف!

لا يستعمل المعجم العربى التصلية مصدرًا فى الصلاة مطلقًا، وإنما يستعمل اسم المصدر (الصلاة) فى هذا المعنى دفعًا لتوهم المعنى المتعلق بتصلية النيران، وهم يستعملون الصلاة اسمًا ومصدرًا منعًا للبس، ومن ثم فالصواب بدلا من مدخل التصلية ص ٩٠ أن يكون المدخل (الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم) ويرد فى باب الصاد!

اقترح أن يزيد فى التعليق على مدخل الطين ص ٢٣٧ "ويستعمل فى ختم الكتب وربطها".

وقع اضطراب فى ترتيب المداخل التالية (٣٦٠):" النسخة العلمية، والنسخة المفككة، والنسخة المنصورية، والنسخة العالية".

وحسبنا هنا أن نثمن جهاد هؤلاء العلماء الكبار فى الكشف عن وجه حضارى رائع طالما أعطى الإنسانية وحنا عليها.

المراجع:

١- نحو علم مخطوطات عربى، للدكتور عبد الستار الحلوجى، دار القاهرة سنة ٢٠٠٤م ص ١٥

٢- نحو علم مخطوطات عربى ص ١٧، وانظر تطبيقه لهذا المفهوم فى المخطوط العربى له،الدار المصرية اللبنانية، والقاهرة سنة ٢٠٠٢م.